الرواية المغاربية مرجعية التأسيس (النشأة والإتجاهات)

تمهيد قراءة في المصطلح:

إن البحث في السرد الروائي المغاربي يقتضي الإشارة إلى مسالة المثاقفة التي جعلت هذا النوع الأدبي يمارس بلغتين وهي:

اللغة العربية: والتي تمثل اللسان الأصل لبلدان المغرب العربي. و **اللغة الفرنسية**: والتي تمثل لغة دخيلة أي لغة الآخر المستعمر ، ممّا أوجد نوعين من الرواية الأولى عربية والثانية فرنسية ومن ثمة فإن السرد الروائي الذي يشكل موضوع محور الدراسة هو ذلك السرد الذي كتب أصلا باللغة العربية ، وهذا لا ينبغي أبدا للتعالقات الموجودة بين هذين النوعين من الكتابة المغاربية. ثم إن اقتران هذا السرد الروائي بصفة المغاربي لا يتأسس أبدا على المفاضلة بينه وبين السرد الروائي في المشرق العربي مما يجعل هذه الصفة " المغاربي" دالة على الإنتماء الجغرافي لهذا النوع الأدبي لمنطقة من العالم العربي، وهي تأكيد أيضا على مظاهر الإشتراك والألفة بين شعوبها كالدين والتاريخ والعادات والتقاليد والمصير المشترك واللغة، وهي مظاهر وتقاطعات تتجاوز وتفوق مظاهر الاختلاف بخاصة الجغرافي منها، ممّا يتيح الحديث على نوع من الخصوصية المغاربية إذ يمثل هذا النوع من السرد الروائي المغاربي رافدا أغنى وتنويعا وتعضيدا لنظيره بالمشرق العربي ليكتمل بذلك المشهد الروائي العربي، في مختلف تشكيلاته الفكرية منها والجمالية.

مرجعيات تأسيس الرواية المغاربية:

لقد تأسس هذا النوع الروائي المغاربي المكتوب بالعربية على ثلاث مرجعيات أسهمت في تشكيل ملامحه الأولى، قبل أن تقوم ببلورة سماته ودفعه إلى البحث عن أشكال سردية حداثية تعبر عن إشكالات المرحلة التاريخية الراهنة في البلدان المغاربية وتصوغ موقفها من التحديات التي تواجه مقومات الهوية فالمرجعية الثقافية العربية مثلت رافدا مهما في نقل الحس الروائي بشروط كتاباته الفنية والإجرائية إلى الأدب المغاربي الحديث المكتوب باللغة العربية، وذلك عن طريق الترجمة والإقتباس لعدد مهم من الأعمال الفرنسية، ثم تكرست هذه المرجعية منذ بداية السبعينيات بترجمة الأعمال ذات الطابع التنظيري للحس الأدبي عامة وسائل الفنون السردية خاصة، نذكر مثلا ترجمة الناقد المغربي محمد برادة لكتاب ميخائيل ياخنين، الخطاب الروائي وكتاب جورج لوكاتش، الرواية الذي ترجمه الناقد الروائي مرزاق بقطاش، وكتاب ست نزهات في غابة السرد لأمير توإيكو، قام بترجمة السعيد بنكراد، وهذا ما أسهم في نضج الممارسة الروائية في المغرب العربي بأن جعل عددا مهما من كتابها يصدرون في تصوفهم ويكتبون الفن الروائي عن وعي نقدي بشروط الكتابة الروائية: أمّا المرجعية التأسيسية الثانية فهي مشرقية تتجلى في استفادة كتاب الرواية في المغرب العربي من التجارب التأسيسي ة الروائية الرائدة في المشرق العربي، كأعمال جرجي زيدان، ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم، وطه حسين وهي تجارب نلمس أصداءها في عدد مهم من النصوص التأسيسية المغاربية. ويضاف إلى المرجعين الغربية والمشرقية مرجعية ثالثة محلية استمد منها كتاب الرواية في المغرب أسئلة وإشكالات متونهم الروائية وتأسيس أشكالها الفنية وأنساقها اللغوية والثقافية من خلال تفاعلهم وأحداث واقع مجتمعاتهم ممّا جعل كتاباتهم ترسم أهم التحولات والأزمات التي ما فتأت شعوبهم تشهدها منذ حصولها على الاستقلال إلى الآن في شتى مجالات الحياة فضلا عن إغنائهم (إثرائهم) الجمالي لتلك الكتابات من الروافد التي يزخر بها تراثهم الأدبي والشعبي، ممّا يعلل ويفسر استخدام مكونات المخيال المغاربي الخاص في عدد من النصوص الواقعية والتأصيلية الشيء الذي يكسب هذه الروايات الخصوصية والتميز، والحديث عن هذه المرجعيات التأسيسية الثلاث يطعن في بعض الأحكام النقدية والتي اعتبرت الرواية المغاربية نشأت بشكل فطري، وإن كان موقع النشأة يمثل من زاوية أخرى مبحثا إشكاليا اختلف في شأنه القراء حول تحديد زمن نشأة الرواية في كل قطر من أقطار المغرب العربي، وذلك بسبب اختلاف المقاييس المعتمدة في تحديد نشأة الحس الروائي، وكذلك في تصنيفه إلى اتجاهات، يحتوي كل

منها عددا من أنماط الكتابة الروائية، إضافة إلى تأثير الأحداث والظروف السادسة، التي تختلف من قطر إلى آخر، والتي أثرت سلبا على تأخر ظهور الرواية المغاربية المكتوبة باللغة العربية، مقاربة مع نظيرتها المشرقية.

ثم إن استقراء هذه المرجعيات التأسيسة للرواية المغاربية يسمح باستخلاص أن هذه الأخيرة تبقى حديثة العهد في بلدان المغرب إذ لم تعرف إنطلاقتها الفنية على المستوى التقني والجمالي، إلا في غضون الستينيات في تونس والمغرب، ومع مطلع السبعينات في ليبيا والجزائر وذلك طبعا إذا قيست هذه الرواية بزمن ظهور نظيرتها في المشرق العربي والغرب الأوروبي.

اتجاهات الرواية المغاربية:

يعكس المدونة الروائية المغاربية ذات الطابع العربي منذ بداية تشكلها مع مطلع الخمسينيات لمصطلحات كبرى في مشهدها الإبداعي تشكلت عبر ثلاث اتجاهات أساسية، تشكلت هذه الإتجاهات التحولات النوعية التي شهدتها الكتابة النثرية المغاربية في الحقل الروائي كما مثلت في الآن نفسه السمات الدالة على ارتجاجات هذه النوع من الكتابة على الفكرية وخصائصهم الجمالية، ومواقف كتاباتهم من تاريخ بلدانهم ومن راهن مجتمعاتهم المعاصرة، خاصة من قضية التاريخ ومن الكتابة الروائية دائما من حيث الشروط والوعي النقدي لها وأدوات ممارسة الكتابة التي تبقى دائما تتطلع إلى تجاوز المنجز تأسيسا وللمكف والمحتمل.

– يمثل المقتضي الأول (إتجاه التقليد)، ممارسة روائية تأسيسة في من يمثل الثاني (إتجاه التحول) منعطفا واعيا في مسار الكتابة الروائية المغاربية، ممّا أثاره من أسئلة وإشكالات وأنساق سرد ومواقف، بينما يمثل الثالث والأخير إتجاه التجريب تجاوزا للغتجاهين السابقين فكريا وجماليا ولغويا، يجب إنخراطه في مسالك البحث والتجريب لأشكال السرد الروائي ذات طابع حداثي، تكون قادرة على تجاوز الأنماط الروائية التقليدية بأطروحتها النقدية والاشتراكية ومواقفها التي لا تتجاوز الرفض والاحتجاج في الأغلب إلى تقديم البديل الإيجابي وأشكالها السردية التي لم تعد تتماشى وإشكالات الراهن المستمدة وتحديثها ويتوفر كلّ إتجاه من هذه الإتجاهات الثلاث على عدد من الأنماط الروائية والتي تشكل مجتمعة العلامات الدالةعلى سماته الفكرية والجمالية، وقد تم التحول من اتجاه سردي إلى آخر نتيجة التحولات المختلفة التي شهدتها سائر المجتمعات المغاربية.

الإتجاه التقليدي:

توفر هذا الإتجاه التقليدي الذي كون بدايات الرواية المغاربية على نمطين يعكسان مقومّاته الفكرية وخصائصه الجمالية وهما:

– نمط الرواية الوطنية ونمط ونمط الرواية السير ذاتية.

وقد تزامن ظهور نمط الرواية الوطنية مع حصول بلدان المغرب العربي على استقلالها، حيث عمد كتابة من الروّاة إلى الاستفادة من التاريخ النظالي لحركات التحرير الوطنية وذلك في صياغة تمجيدية مفاعلة بلحظة الإستقلال وحدوث النصر، وما توالت عنها من مشاعر أخوّة ورغبة في إثبات مقومات الهوية المستلبة، والتغيير في الموقف السياسي بخاصة إذا أدركنا أن هذا الجيل الرائد من كتاب الرواية المغاربية قد عايش الإستعمار. فعاين وكابد أشكال معاناته وهو الجيل الذي تمثل له بكلّ من محمد لعروسي المطوي، محمد المختار من تونس وعبد الحميد بن هدوقة، الطاهر وطار، عبد الكريم غلاب، مبارك ربيع من المغرب، محمد الصالح الغموجي من ليبيا. وقد استلم هذا الجيل روّاد الرواية المغاربية عددا مهما من موضوعات نصوصهم الروائية من التاريخ الثوري لشعوبهم أو من تجاربهم الذاتية خلال المرحلة الاستعمارية والآن يشهد هذا الإتجاه التقليدي تلاشيه في منتصف السبعينيات في كلّ من تونس والمغرب وليبيا،

فاسحا المجال للنمط الواقعي في تشكيله النقدي والإشتراكي،فإنه تواصل في المتن الروائي الجزائري إلى حدّ الآن حيث ما يزال موضوع الثورة التحررية مثل

أمّا النمط الثاني من الإتجاه التقليدي هو نمط السيرة الذاتية حيث يعكس تواصلا عميقا بين الذاتي والموضوعي والواقعي والمتمثل إن كانت الذات تبقى هي موضوع الكتابة ومصادرها، ويبقى النص يعمل على إيهامنا بواقعيته، وبأن كل ما تتضمنه الرواية يتصل بحياة كاتبها من قريب أو من بعيد. وهو ما يؤكد أن هذا النمط من الكتابة الروائية يحاول أن يرتبط باستمرار بالماضي والحاضر في تعبيره عن أزمة مثقفي المغرب العربي، بعد أن تم استقلال بلدانهم، والناتجة عن التحولات والتغيرات التي كانت تشهدها مجتمعاتهم آنذاك، بعد أن بدأت البنيات التقليدية المتوارثة في التصدّع والتلاشي لتحلّ محلّها أخرى حديثة، فكانت الكتابة في الذات بالنسبة للكاتب هي الطريق المناسب لتجسيد حضوره، وقد حاكى هذا النمط الأدبي وهو يتأسس على النموذج المشرقي مثلما جسدت سماته وخصائصه نصوص مثل الأيام لطه حسين، عصفور من الشرق يوميات نائم في الأرياف، وغيرها من الروايات السير ذاتية التي استدعت في متونها عددا من مكونات التذويت.

إتجاه التحول:

ارتحل السرد الروائي المغاربي من أنماط الكتابة التي تستعيد الماضي التاريخي للشعب المغاربي في مرحلة النضال التحريري أو التاريخ الفردي لسير عدد من الكتاب إلى أنماط جديدة من الكتابة تركز على إشكاليات الواقع التي نتجت في إستقلال البلدان المغاربية لتنضوي تحت إتجاه أطلق عليه إتجاه التحول ،بحكم أنّه يمثل تحوّل توعوي في شكل الممارسة الروائية، ويجسد في الآن نفسه ومن خلال أسئلة متونه الروائية مختلف التحولات التي بدأت تشهدها الرواية المغاربية منذ مطلع السبعينيات ، ويمثله نمط الرواية الواقعية النقدية، والرواية الواقعية الإشتراكية.

فالنمط الأول تعامل مع تحولات الواقع وتغيراته السياسية والإجتماعية المتأزمة في الأغلب من موقع المساءلة التي تطرح القضايا المستجدة طرحا إشكاليا يتجاوز الرصد إلى النقد ويتخلى عن موقع المصالحة فيعلن المواجهة التي تكرّس علاقة الإختلاف والصدام القائمة بين كتاب هذه الرواية والواقع والناجمة عادة في الشعور بتعذر الإنسجام والتلاؤم مع الواقع إعتبارا ألما يشكوه المثقف(الكاتب) من مظاهر يتعارض وما يحملونه من قيم ويتطلعون إليه من أفق الوجود الأفضل خاصة بعد أن وجدوا أنفسهم مهمشين لا يطلعون بالوظيفي من الأدوار وهم الذين كانوا يتوقون إلى أن يكونوا المرحلة التحديثية التي تمر بها مجتمعاتهم فهكذا فإن التحولات الإجتماعية على مدى 70 و80 قد أشعرت المثقف بأن أفكاره وأحاسيسه وإنتاجه أمور هامشية فالنظر إلى الدفاع في كيانه ورفض المنزلة التي دفع إليها دفعا محاولا تجاوز الشعور بالإغتراب والقلق والضياع. وهذا ما يعلل إلحاح الكتاب هذا النمط الروائي محمد الصالح الجابري، ومحمد الهادي بن صالح، واسيني الأعرج، الحبيب السائح، الجلالي خلاص، محمد زفزاف، عزالدين التازي تعرية جوانب الخلل الإجتماعي والسياسي، نقدها نقدا انتهى في أغلب الأحيان إلى التشهير بها وهم يؤكدون على رفضها في صيغ يغلب عليها الموقف الانفعالي عبر صور من الاحتجاج تصل أحيانا إلى السب والشتيمة للسلطة التي تمثل في نظر كتاب هذه الرواية السبب الرئيسي في تردي الأوضاع وتأزم المناخات الإجتماعية مثل ما نجده في رواية " قرون الثيران " وقد ربط فيها بين أحداث 05 أكتوبر 1988 والدوافع الموضوعية التي دفعته إلى كتابة هذه الرواية إذ يقول في مقدمتها: " قيل عن أحداث 05 أكتوبر 1988" أنها من صنع السلطة وأين كانت خلفياتها وأسبابها ودوافعها فإن الشعب الجزائري هب ليقول كلمته ويعلن رفضه لمحتكري الرأي الواحد"

لذى فقد قامت الرواية بوظيفة سياسية وثقافية هي التعبير عن الأسباب الحقيقية لأزمة أكتوبر منتقدا في حدّ ذاته السلطة المتصلة في الرواية، وهذا المنظور للسلطة هو الذي يفسر تركيز هؤلاء الكتاب على تصوير الصراع القائم بين السلطة وبعض الفئات الإجتماعية، لذلك كثيرا ما نجد تحليلا لشخصية المثقف ودوره في المجتمع وعلاقته ومنظوره للسلطة التي عادة ما تشكل علاقة تصادم وصراع مبنية على المركزية والهامشية. أمّا النمط الثاني هو الرواية الواقعية الإشتراكية يعكس هذا الإتجاه تطور في نوع الرواية الواقعية النقدية دون أن يتنكر لما حققه من إنجازات أدبية مفيدة أسهمت في ترقية الجنس الروائي وعلى هذا الأساس فقد مرّ نمط الرواية الواقعية النقدية من النمط النقدي ومن ثم إختلف عنه بحكم أن نصوصه لا تكتفي وفي الواقع وإنما تحاول أن ترسم أيضا وعيا لمستقبله(هديان، اللاز، الحق) فهذه الرواية لا تقتصر على إدراك العالم ومعرفته بقدر ما تروم إعادة تشكيله وتسعى إلى أن تثير فهما وإدراكا للعالم، وهي تقوم على الصراع الملحمي هذا ضد النظم الإجتماعي غير العادلة، في سبب إعادة بناء المجتمع غير أن نصوص في هذا النمط الإشتراكي تبقى محدودة ضمن مدونة الرواية المغاربية، إذ تكاد تقتصر على الجزائري وبخاصة على تجربة الأديب " الطاهر وطار " بالأساس والتي تمثلها رواية " اللاز " 1972، الموت والعشق في زمن الحراش 1980، تجربة في العشق 1989، وقد عبّر الكاتب نفسه عن البعد الوظيفي لواية في مقدمة " اللاز" حيث يقول متحدثا عن مناسبة كتابة الرواية " طيلة سبعة سنوات 1965-1972" التي استغرقتها كتابة هذه القصة المتقطعة من شهر إلى آخر كان يطغى عليه الشعور بالذنب لأن بلادي تسير إلى الأمام بخطى ثابتة المدارس تنبت في الأرض نباتا والمعاهد تتطاول في المدن والقرى تطاولا، والمعامل تنقل آلاتها، أرضنا شرقها وغربها شمالها وجنوبها والإنسان في كل ذلك يتطور، وأنا مشدود إلى هذه القصة أتفرج على الماضي، ولا أسهم في المعركة الحاضرة"

وهذا ما يفيد ممارسة هذا النمط من الكتابة الروائية في مسار الرواية ، أفرزته ملابسات مرحلة تاريخية سرعان ما تلاشى بزوالها مما مهد السبيل للسرد الروائي كي يرتحل إلى آفاق جديدة.

إتجاه التجديد:

تميز هذا الإتجاه عن الإتجاهين السابقين بقيام الكتابة الروائية فيه بالأساس على هاجس البحث توقا إلى تحقيق المغايرة من خلال أسئلة متن وأنبية شكل وأنساق لغة وخطاب، وهو ما يجعله فعلا كما قال ميخائيل يختين في حال تشكل دائم يسعى إلى أن يكون متكاملا دون أن يتكامل وذلك من خلال سمة التجديد الملازمة له، وسنة للهدم والبناء التي يسير وفقها، فهو يسترجع السابق من النصوص يحاورها قبل أن ينتهي إلى تدميرها ويقيم على أنقاضها شكلا بديلا فهاجس التجاوز الذي يملكه ا الإتجاه التجديدي في الممارسة الروائية المغاربية، يمثل سمة مميزة من سمة حداثتها ويعكس في جوهره نزعة إلى مراجعة السائد من مفاهيم الممارسة الروائية وإعادة النظر في المالوف من حيث أدواتها الفنية وأدوارها ومقاصدها في مرحلة تاريخية تميزت بتحولاتها العميقة وتغيراتها المحلية والعالمية مما يعلل تضخم السؤال الهوية، وإلحاحه على هذا الجيل، وقد تعددت صور إنتصارهم بعد أن أحبط الإستقلال ما كانوا يتطلعون إليه.

رواية التجريب:

يتأسس التجريب على عملية البحث تمثل أولى درجاته فبدون بحث لا يوجد تجريب حيث تمثل المغامرة جوهر التجريب الفني، وذلك بحكم انبنائه على نقص المسلمات الجامدة والتقاليد الثابتة وصياغة السؤال الذي يولد السؤال ويقترن التجريب في الرواية كما في غيرها من الأجناس الأدبية بالأسئلة التي تسعى إلى تدمير سلطة السائل والمألوف الفني ثقافيا وإجتماعيا بالبحث في إجابات جديدة غير تلك التي كانت سابقا إجابات هي أعمق لعلاقات الواقع لكنها تحمل أسئلة أخرى وهذا ما يقتضي من الروائي وهو يبحث عن الشكل الفني الجديد الذي يحقق له الخصوصية والتفرد على أساس أن الاكتمال يكمن أصلا في البحث المتواصل على حد تعبير

الناقدة الفرنسية " فتالي ساروط " فالتجريب الذي يمارسه الروائي دون أن يدرك مداره ومعناه ولا حقيقة ما يبحث عنه يؤشر إلى وعي النقد بفعل الكتابة من خلال مساءلة الذات الكاتبة، وهي المساءلة التي تحول إلى فضاء الكتابة الذاتية من خلال طرح أسئلة الكتابة وشروطها ومقاصدها وهي تتشكل أو ما يسمى برواية الأسئلة حيث يتحول الروائي إلى ناقد يطرح انشغالات الكتابة الروائية وعلاقة الذات بالوجود داخل الرواية ويكون هذا بالبحث في الآن نفسه أي التجريب يسعى إلى تعرية واقع مجهول وذلك عبر سن شفرات جديدة للنص الروائي قائمة على تجاوز علاقة مماثلة النص والمطابقة بينه وبين الراهن وكان عند الروائيين في ذلك توظيف عنصر الخارق والعجيب والماورائي والانفتاح على عوامل الحلم واللاوعي. وقد مثل هذا النمط عدد من الكتاب المغاربة نذكر منهم: الكاتب المغربي عزالدين التازي في رواية " المباءة"، ميلود شغموع في روايته الأناقة إبراهيم الدرغوثي " القيامة الآن "، وراء السراب قليلا محمد براءة " لعبة النسيان ". وظف فيها حوارية النقد والإبداع، واسيني الأعرج، ذاكرة الماء، رشيد بوجدرة التفكك، أحلام مستغانمي، إبراهيم الكوني، نزيف الحجر.

رواية توظيف التراث:

يندرج هذا النمط ضمن هذا النموذج التجديدي للممارسة الروائية ويمثل نموذجا دالا على حداثتها، وذلك من خلال التعامل مع التراث على إختلاف مراجعه وتشكلاته والذي يعد أحد مسالك التجريب الروائي الذي سلكها عدد من كتاب الرواية المغاربية منذ مطلع الثمانينات بحثا عن أفق في الكتابة يتجاوز المستحدث في أنماط الرواية التقليدية يحدّ في الآن نفسه من سلطة الثقافة الغربية وهذا ما جعله ينفتح على أفق الحداثة باحثا عن التمايز والخصوصية عبر المغايرة، وعن التفرد عبر تجاوز السائد من طرائق التعبير المستحدثة في الغرب، وتنخرط هذه النزعة إلى توظيف التراث ضمن مذهب تجريبي في الكتابة الروائية الذي يتوق إلى تحديث حداثة متنه الحكائي وأنساق خطابه ومستويات لغته وأسلوبه لأن توظيف التراث يقترن باللغة وأنساق خطابه ويتعلق أيضا بالأسلوب عبر استرجاع النص التراثي وتمثله رغبة البحث فيه عما يمكن أن يستوعب بعض إشكالات الراهن ويعبر عنها